

تَحَلَّقَتِ الْأَسْرَةُ وَالْأَقْرَبَاءُ، وَآخَرُونَ، حَوْلَ النَّارِ، أَسْفَلَ الْجَبَلِ الشَّامِخِ ذِي الْقِمَّةِ الْمُسْتَنَّةِ. وَخَيَّمَ الْوُجُومُ عَلَى أَفْكَارِ أَفْرَادِهَا، وَخَبَّتْ فِي عُيُونِهِمْ أَنْوَارُ الْمُسْتَقْبَلِ. السَّاعَةُ سَاعَةُ سَحَرٍ، وَالْيَوْمُ يَوْمٌ نَصْرٍ أَوْ هَزِيمَةٍ. وَالْجَبَلُ كَالْمَارِدِ شَامِخٍ، مُنْتَصِبٍ، يَنْتَظِرُ مَنْ يَحْدَاهُ، وَيَتَسَلَّقُهُ. وَحَدَّثَ أَنْ سَكَنَتِ النَّارُ قَلِيلًا، وَبَهَتِ نَوْرُهَا، فَقَذَفَ أَحَدُهُمْ بِقَبْضَةِ عَشْبٍ جَافٍ اسْتَقَرَّتْ فِي أَتُونِهَا وَالتَّهَبَّتْ وَعَادَ النَّوْرُ يَسْطَعُ مِنْ جَدِيدٍ، فَأَضَاءَ وَجُوهَ أَفْرَادِ الْأَسْرَةِ، وَأَظْهَرَ مَلَامِحَهُمْ: كُلُّهُمْ كَانُوا خَائِفِينَ إِلَّا وَاحِدًا، هُوَ أَكْثَرُهُمْ قُوَّةً، وَأَمْلُوهُمْ حَيَوِيَّةً، وَأَشَدَّهُمْ عَصَبًا وَعَضَلًا وَجَلْدًا، شَابٌ قَوِيٌّ جَمِيلٌ، تَلَمَّعَ فِي عَيْنَيْهِ نَظَرَاتُ التَّحَدِّيِّ، وَتَنَفَّرَ فِي عَضَلَاتِهِ عُرُوقُ النِّقَّةِ وَالْعِزْمِ. أَخِيرًا، انْصَدَعَ الْفَجْرُ، وَظَهَرَ هَيْكَلُ الْجَبَلِ وَاضِحًا. فَأَشَارَ إِلَيْهِ الشَّابُّ بِيَدِهِ، حِجَارَةً لَنْ تَعْصِيَ عَلَى الْبَشَرِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ تَمْتَمَّةَ الشَّابُّ ارْتَفَعَتْ عَنْ مِقْيَاسِ الْهَمْسِ، فَإِنَّ أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ حَوْلَهُ لَمْ يَسْمَعْهُ. وَلَكِنَّهُ، هُوَ، سَمِعَ كُلَّ التَّعْلِيلَاتِ الْمُحْبِطَةِ لِلْعَزِيمَةِ الَّتِي هَاجَمَتْهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَصَوَّبَ. سَمِعَ جَدَّهُ الْعَجُوزَ يَقُولُ: لَنْ يَصِلَ أَبَدًا. سَيَصْعَقُهُ الْبَرْدُ، وَسَتَرْتَجِفُ رُكْبَتَاهُ تَحْتَ الْأَنْقَالِ. وَأَصْغَى أَيْضًا إِلَى أَبِيهِ حِينَ هَتَفَ: - رَبِّيئُهُ حَتَّى يُعِينَنِي عَلَى شَيْخُوخَتِي، كَمَا أَعِينُ أَنَا أَبِي الْيَوْمَ عَلَى شَيْخُوخَتِهِ، وَهَا هُوَ الْآنَ يُضْحِي بِنَفْسِهِ عَلَى طَرِيقِ الْمَجْدِ الزَّائِفِ. أَمَّا أُمُّهُ، أُمُّ الشَّابِّ، فَوَلَوْلَتْهُ «قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ». - وَلَدَاهُ! حَبِيبِي، خَلَمْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ تَسْقُطُ مِنْ خَالِقٍ، وَبِرْتِطَمٍ رَأْسِكَ بِالصَّخْرِ، وَيَتَنَاثَرُ. أَوَاهُ وَلَدِي انْتَظِرْنِي إِلَى أَنْ أَمُوتَ، ثُمَّ أَفْعَلْ مَا يَحُلُو لَكَ. وَالْجَدَّةُ، جَدَّتُهُ، كَانَتْ تَبْكِي تَارَةً، وَطَوْرًا تُصَلِّي وَشَقِيقَاتُهُ نَائِحَاتٍ. ضَاقَ صَدْرُ الشَّابِّ بِمَا سَمِعَهُ، فَغَلَّتْ دِمَاءُ الْفُتُوَّةِ فِي عُرُوقِهِ. وَانْفَجَرَ يُعْطِي رَأْيَهُ، - كُلُّكُمْ تَرِيدُونَ الْبَقَاءَ تَحْتَ الْعُيُومِ. أَمَا أَنَا فَأَرِيدُ الْوُصُولَ إِلَى أَعْلَى الْجَبَلِ لِأَصْبَحَ فَوْقَهَا. وَصَمَتَ الشَّابُّ. وَلَكِنْ كَلِمَاتِهِ كَانَتْ مُقَدِّمَةً لِدُخْلِ الْأَصْدِقَاءِ، وَالْأَحْبَاءِ، وَذَوِي الْقُرْبَى. فَتَضَارَبَتْ تَعْلِيلَاتُهُمْ. تَقَدَّمَ الصَّدِيقُ، صَدِيقُ الشَّابِّ، أَوَّلًا، - رُؤْيِكَ. حَكَمَ الْعَقْلُ، يَا أَحَبَّ مِنْ أُخِي. - لَا تَذْهَبْ مَنْ يَطْلُبُ تَسْلُقُ الْجِبَالَ، فَلَنْ تَرْحِمَهُ الْمَخَاطِرُ أَرْضَ بَعْثِكَ كَمَا يَرْضَى بِهِ أَبْنَاءُ أَعْمَامِكَ، وَعَمَاتِكَ، وَخَالَاتِكَ، وَسَائِرُ الشَّبَّانِ مِنْ أَقْرَبَائِكَ. وَسَمِعَ الشَّابُّ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ كُلَّ شَيْءٍ فَهَمَ فَقَطُ أَنَّهُ يُرِيدُ التَّسْلُقَ. بَزَعَتِ الشَّمْسُ، فَارْتَفَعَتْ قَامَةُ الشَّابِّ تَطَاوَلَ إِشْرَاقُهَا. دَقَّتْ سَاعَةُ الصَّفْرِ، فَدَقَّتْ مَعَهَا الْأَفْعِدَةُ الْحَائِفَةُ، وَعَاصَتِ فِيهَا الْقُلُوبُ. مَشَى الشَّابُّ بِخَطَاهُ السَّرِيعَةِ الْوَائِقَةِ إِلَى عَدَّتِهِ. شَدَّ حِرَامَ جَعْبَتِهِ إِلَى صَدْرِهِ. تَأَبَّطَ كَلَالِيْبِهِ، وَالتَفَّتْ إِلَى الْمَوْجُودِينَ بِأَسِمًا مَوْدِعًا. وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ نَفْسُهَا، انْفَجَرَ جَوْ الْكَيْتِ وَالتَّصْنَعِ، وَهَرَعَتِ الْأَيْدِي الْمُرْتَجِفَةُ، وَمِنْ كُلِّ جَانِبٍ، تُمْسِكُ بِهِ، تَشُدُّ بِهِ إِلَى الْوَرَاءِ، تَقْلُقُ عَزْمَهُ، وَتُشَوِّشُ أَفْكَارَهُ، أَيَادٍ جَبَّارَةٌ، كَادَتْ تَسْقِطُهُ إِلَى الْأَرْضِ، لَوْ لَمْ يَتِمَكَّنْ أَخِيرًا مِنْ تَحْرِيرِ نَفْسِهِ، فَأَصْلَحَ مِنْ وَضْعِهِ، وَبَاشَرَ رِحْلَةَ الْمَجْدِ الْمَحْفُوفَةِ بِالْمَخَاطِرِ. سَارَتِ الرِّحْلَةُ، رِحْلَةُ الشَّابِّ، هَادئةً فِي مَظَاهِرِهَا، نَائِرَةً فِي أَعْمَاقِهَا، بَعْدَمَا نَجَحَتِ الْأَسْرَةُ، وَسَائِرُ الْمَوْجُودِينَ، فِي قَلْقَلَةٍ صُحُورٍ عَزِيمَةٍ الْفَتَى الثَّابِتَةِ، وَمَا إِنْ بَدَأَ التَّسْلُقُ يَزْدَادُ صَعُوبَةً، وَالرِّيحُ الثَّلْجِيَّةُ تَصْنَعُ وَجْهَ الْمُتَسَلِّقِ الشَّابِّ، حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى ذَاكِرَتِهِ مَشَاهِدَ الْوَدَاعِ أَسْفَلَ الْجَبَلِ. فَأَحَاطَتْ بِهِ الْأَفْكَارُ، وَتَقَادَفَتْهُ الْهَوَاجِسُ، فَخِيلَ إِلَيْهِ أَنْ دُمُوعَ أُمِّهِ وَشَقِيقَاتِهِ مَزَالُ يَهْوِي فَوْقَهَا، وَكَلِمَاتُ أَبِيهِ حِبَالٌ تَخْلُقُ ضَمِيرَهُ، وَجُمْلَةُ جَدِّهِ تُثْقِلُ شَبَابَهُ بِمِثَّةٍ مِنَ الْأَعْوَامِ. أَمَّا صَلَاةُ جَدَّتِهِ فَتَنْذِيرٌ بِالشُّومِ الْوَيْلِ. كَمَا أَبْصَرَ نَفْسَهُ، وَبَعَيْنَ الرُّوْيَا أَيْضًا، يَهْوِي مِنْ خَالِقٍ، بَيْنَمَا كَانَ أَبْنَاءُ أَعْمَامِهِ، وَعَمَاتِهِ، وَخَالَاتِهِ، يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُونَ، وَيَسْمَعُونَ، وَيَتَزَوَّجُونَ، وَيُنْجِبُونَ. تَشَرَّدَمَتِ عَزِيمَتُهُ، وَانْقَسَمَتِ قَرَارَاتُهُ بَيْنَ خُيُوطٍ تَشُدُّ بِهِ نَحْوَ الْعَلَاءِ، وَحِبَالٍ تَجْرُهُ نَحْوَ التَّرَابِ. وَمَا إِنْ وَصَلَ إِلَى بَدَايَةِ نَهَايَةِ الرِّحْلَةِ، وَهِيَ صَخْرَةٌ شَاهِقَةٌ، مَلْسَاءُ الْجَوَانِبِ، حَتَّى أَدْرَكَ أَنَّهُ وَصَلَ أَخِيرًا إِلَى حُدُودِ الْإِخْتِيَارِ بَيْنَ السَّقُوطِ أَوْ الْاسْتِمْرَارِ. فَاخْتَارَ الْإِخْتِيَارَ. وَمَزَقَتْ أَظْفَارُهُ الصَّخْرَ الْأَصَمَّ، وَهُوَ يَغْرِزُ، فِي أَعْلَى الْقِمَّةِ، رَايَةَ النَّصْرِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي خَفَقَتْ بِهَزِيمَةٍ الْخِذْلَانِ وَالْهَزِيمَةِ.